تجليات الفكر الصوفي في الشعر الشعبي التيديكلتي قصائد الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي انموذجاً

Manifestations of Sufi Thought in the Popular Poetry of Tidikelt Poemes of Elhaj Mohammed Ben Kadour Ettali a Model-

بامحمد محمود[1] / بكادي مُحَمَّد[2] *

Bamhammad Mahmoud [1] / Bakadi Mohammed [2]

مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست

جامعة تامنغست(الجزائر)

University of Tamanghasset (Algeria)

.bamhamed.mahmoud@univ-tam.dz [1] / bakadi.mohammed@univ-tam.dz [2]

تاريخ الإرسال: 2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/06/04	تاريخ النشر: 2024/09/02

مُلخَّص البَحث

يطرق هذا البحث أحد أهم مظاهر العلاقة القائمة بين الفكر الصوفي، والشعر الشعبي التيديكلتي، حيث يتناول مسألة تمظهر هذا الفكر في شعر أحد أعلام الشعر الشعبي بمنطقة تيديكلت، وهو الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، وذلك بهدف الوقوف على تجليات هذا الفكر وتأثيره في الأعمال الابداعية الشعرية في منطقة تيديكلت ـ بشكل عام ـ وذلك من خلال الأعمال الشعرية لهذا الشاعر، وإبراز مظاهر هذا التجلي من خلال الاستقصاء والتتبع، لأهم المبادئ والأفكار والمعتقدات الصوفية التي تضمنها شعر الشاعر، والتي تؤكد على حجم المرجعية الصوفية للشعر الشعبي بمنطقة تيديكلت.

ومن خلال عملية الرصد لمجمل مظاهر ذلك التجلي للأفكار والمعتقدات الصوفية، والتعرض إليها بالشرح والتحليل والمناقشة، وسيقف هذا البحث على عدة نتائج، تبرز وتؤكد علاقة الفكر الصوفي الوطيدة بشعر الشاعر الشعبي التيديكلتي الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي بشكل خاص، والشعر الشعبي التيديكلتي بشكل عام.

الكلمات المفتاح : الفكر الصوفي، تيديكلت، الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، المبادى الصوفية، المصطلح الصوفي.

Abstract :

This research deals with the study of one of the most important manifestations of the relationship between Sufi thought, and popular Tidikelt poetry, where it deals with the issue of the manifestation of this thought in the poetry of one of the poets in the Tidikelt region, the poet Hajj Muhammad bin

* بامحمد محمود:mahmoudintenden@gmail.com

Kaddour ettali, aiming at standing on the manifestations of this thought and its impact on the creative poetic works in the Tidikelt region in general, through the poetic works of this poet, and to highlight the manifestations of this manifestation through investigation and tracking, of the most important principles, ideas and beliefs Sufism included in the poet's work, which emphasizes the purpose of the Sufi reference to popular poetry in the Tidikelt region

Through the process of monitoring the overall aspects of that manifestation of Sufi ideas and beliefs, and exposure to them by explanation, analysis and discussion, this research will stand on several results, highlighting and confirming the close relationship of Sufi thought with the poetry of the popular poet Al-Tidiklti Hajj Muhammad bin Kaddour following in particular, and popular poetry Al-Tidikelti in general,

Keywords : sufi thought, elhaj mohamed ben kaddour el-Tali,sufi prenciples, sufi term.

تمهيد:

تعد منطقة شمال إفريقيا عموماً ومنطقة الجنوب الجزائري خصوصاً، من المناطق التي استقبلت تيار التصوف وأنتشر فيها مع مرور الزمن انتشارا واسعا، حتى صار في بعض منها جزء من التركيبة السوسيو-ثقافية للمجتمع الذي يقطنها .

ومنطقة تيديكلت هي من بين المناطق التي أصبح فيها التصوف يشكل جزءا أصيلا في تركيبتها الاجتماعية، ومكونا أساسا من مكونات منظومتها الثقافية والدينية، حيث نجد أن معظم مدارسها القرآنية التي تدرس الناشئة، ومعظم الزوايا المنتشرة في ربوعها إنما هي زوايا ومدارس ذات خلفية صوفية ومنهجها في التربية والتعليم يستند للمبادئ والقواعد الصوفية.

وبطبيعة الحال، وباعتبار أن الشعر الشعبي هو أحد الوسائل التعبيرية عن الفكر المجتمعي للمنطقة، فقد كان من المنطقي، أن يتأثر بتيار الفكر الصوفي الذي، كما قلنا، يمثل أحد المكونات الفكرية المهمة للمجتمع التيديكلتي، ومن البديهي، كذلك، أن يتظهر هذا الفكر في هذا الشعر، وهو الأمر الذي نحاول من خلال

هذا البحث أن نسلط عليه الضوء، ونقف عليه من خلال دراسة تجليات هذا الفكر في الشعر الشعبي التيديكلتي، وذلك من خلال أنموذج يتمثل في أشعار أحد أعلام الشعر الشعبي في المجتمع التيديكلتي، وهو الشاعر المجاهد الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، الذي كتب في العديد الأغراض الشعرية، والذي ماتزال أشعاره إرثاً ثقافياً يُتغنى به في مختلف الطبوع الفلكلورية بمنطقة تيديكلت، محاولين في ذات الوقت إيضاح تمظهر تلك الأفكار والمبادئ الصوفية في أشعاره من خلال إجابتنا على بعض الأسئلة، التي تتضمن اشكالية هذا البحث، والمتمثلة في ما يلي:

أولا : كيف تمظهر الفكر الصوفي في أشعار الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي ؟

ثانيا : ماهي أهم المبادئ الصوفية التي تجلت في قصائد هذا الشاعر ؟

ثالثا: كيف تعامل الشاعر مع القاموس الصوفي، وكيف وظف مصطلحاته في أشعاره؟

وهي الأسئلة التي ستكون إجابتنا عليها من خلال التطرق لعدة محاور أساسية تؤمن لنا الإجابة عن تلك الأسئلة المطروحة، والتي من أهمها تمظهر تيار الفكر الصوفي في قصائد وأشعار الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، وذلك من زاويتي تجلي الافكار والمبادئ الصوفية في قصائد الشاعر، وكذلك من خلال رصد استعمال الشاعر للقاموس الصوفي ،وتوظيفه لجملة من الاصطلاحات الصوفية في أشعاره.

أولاً :التعريف بمنطقة تيديكلت:

منطقة تيديكلت هي أحد المناطق الصحراوية الجزائرية "تقع منطقة تيديكلت في أقصى الجنوب الجزائري ،تنحصر بين دائرتي عرض 25 و28 شمالاً، وخطي طول 1 و7 شرقاً،يحدها من الشرق هضبة تيغرت بمنطقة إليزي ،ومن الشمال الشرقي العرق الشرقي الكبير ومنطقة حاسي مسعود ،وشمالاً منطقة المنيعة ومن الشمال الغربي العرق الغربي الكبير وتيمون ،وغرباً بلاد توات ورقان ومن الجنوب جبال أهنت ومرتفعات مويدر."[1]

ثانياً :التعريف بالشاعر

الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي هو من الشعراء البارزين المعروفين بمنطقة التيديكلت، ولد خلال سنة 1928م بفقارة الزوى، ولاية عين صالح ،والده هو :الحاج قدور التالي،وأمه عائشة بن الدين من عائلة المجاهد "بوخواصة،" نشأ الحاج مُحَمَّد بن قدور نشأة بدوية، حيث تربى في البادية مع والده الحاج قدور الذي كان مربيا للأغنام والإبل ،تعلم ركوب الجمال فكان من الفرسان المهرة، وكان من مهارته يوصف بأنه كان يقف على الجمل وهو يجري، وكان كذلك يوصف بأنه كان مرشدا متمكنا عارفا للطرق والمنافذ الصحراوية للجهات المجاورة ، مثل صحراء "أزجر" بولاية اليزي، وصحراء "الهقار" بولاية تامنغست، وكذلك مناطق صحراء ورقلة وغرداية والمنيعة، ومنطقة توات.

درس الحاج مُحَمَّد بن قدور عند الشيخ مولاي أحمد الطاهري في الزاوية الطاهرية لتعليم القرءان الكريم ببلدية سالي دائرة رقان ولاية أدرار، وهي الزاوية التي تعلم فيها القراءة والكتابة ،وعلوم الدين ومبادئ الشريعة الإسلامية،لكن الأوضاع المتردية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر حالت دون مواصلته للتعليم القرآني بالزاوية الطاهرية ،فاضطر للعودة إلى الديار بفقارة الزوى، ثم سافر بعدها إلى تونس بغرض التجارة، فتعلم هناك مبادئ تفسير الرؤيا والأحلام.[2]

"كان الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي من الرجال المتعددي المعارف والمواهب، فقد كانت له دراية بعلوم متعددة، مثل تاريخ القبائل، والأنساب، كما كان يتقن العزف على آلة القصبة ،وقرض الشعر، والغناء الذي تعلمه من معلمه الشيخ جلول بلعابد رحمه الله ، وهي الموهبة التي نقلها بدوره إلى أبناء منطقته ، حيث عرف بتعليم الأغاني والمدائح وغيرها من العلوم والمواهب التي كان يتقنها.

وقد كان الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور، من المجاهدين الذين التحقوا بجبهة التحرير،حيث سافر في سنة 1956 إلى تونس رفقة المجاهد الصفيرات عبد العزيز أحد المنخرطين في جبهة التحرير الوطني في رحلة تجارية وأثناء هذه الرحلة التجارية كان له لقاء مع العديد من المجاهدين الذين طلبوا منه حث المواطنين على الالتحاق بجبهة التحرير، ودعمها مادياً ومعنويا للوقوف في وجه المحتل الغاشم ،وفي 1957 عاد من رحلته وذلك بطلب من المجاهد بودواية مُحَمَّد رئيس مكتب المجاهدين وجيش جبهة التحرير الوطني بفقارة الزوى"[3].

"وكان بحكم كونه مسؤول فرقة في جيش التحرير الوطني مكلفا بمهمة جمع الاشتراكات والمساعدات والسلاح والذخيرة ،وكذا نقل البريد بين المناطق المجاورة، ورصد تحركات المحتل ومناطق تمركزه لتسهيل وصول المساعدات للمجاهدين، وبحكم كونه شاعرا ومغنيا ، فقد تم تكليفه ، كذلك بمهمة تحسيس أهل منطقته وتوعيتهم ، وحثهم بضرورة دعم الثورة والالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني وذلك عن طريق أشعاره الثورية ، وأغانيه المحلية الوطنية التي تتغنى ببطولات وتضحيات المجاهدين.

توفي المجاهد الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي يوم الجمعة 14 جويلية 2001 في وسط أفراد عائلته،عن عمر ناهز 73 عاماً ،قضاها كدّاً وعملاً في سبيل الله وفي سبيل الوطن ، دفن بجوار أبيه تنفيذا لوصيته"[4]

ثالثاً : تمظهر الفكر الصوفي في قصائد الشاعر الحاج بن قدور التالي

يمكن القول إن العديد من الشعراء الشعبيين في منطقتي توات وتيديكلت، قد تأثروا أيما تأثر بالتصوف الإسلامي، وذلك بحكم البيئة الاجتماعية والثقافية والدينية التي عاش هؤلاء في كنفها، والتي تعد من أخصب البيئات التي استقبلت الفكر الصوفي، ولا أدلَّ على ذلك من انتشار الزوايا والطرق الصوفية في هاتين المنطقتين، اللتين أصبحتا تشكلان منارتان لنشر الفكر الصوفي والمبادئ الصوفية،وأدتا إلى تغلغل ذلك الفكر في المجتمع ، جاعلة منه أسلوب حياة.

والشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، هو أحد هؤلاء الشعراء الشعبيين الذين تشبعو[ا بهذا الفكر، وتأثروا به وانتهجوه في أفكارهم وتعاملاتهم ، وانعكس كذلك على ثقافتهم، وعلى حياتهم الاجتماعية، وصار أحد الروافد المهمة لأشعارهم وإبداعاتهم، حيث نجد أن جل قصائد هذا الشاعر لا تخلو من خلفية صوفية ,مهما كان الغرض الذي كتبت فيه.

ولعل أبرز تمظهرات هذا التيار الفكري في أشعار الشاعر مُحَمَّد بن قدور التالي، قد تمثلت في مظهرين أساسيين؛ يتمثل الأول في كون أن أغلب القصائد التي كتبها الشاعر تتضمن وتتبنى المبادئ والأفكار والمعتقدات الصوفية. أما الثاني فيتمثل في تعامل الشاعر مع القاموس الصوفي، واستحضار واستدعاء بعض المصطلحات الصوفية الأصيلة ذات الدلالة الصوفية الواضحة، وتبنيها وتوظيفها في أشعاره. وهو الأمر الذي سنقف عليه ، ونبينه في الآتي:

1- : تجليات الأفكار والمبادئ الصوفية في أشعاره

إن معظم القصائد الشعبية التي كتبها الشاعر الشعبي التيديكلتي؛ الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، بغض النظر عن غرضها الشعري، نجدها تتضمن العديد من المعتقدات والأفكار والمبادئ ذات العلاقة بتيار الفكر الصوفي، حيث أن الشاعر في هذه القصائد عادة ما يتناول فكرة هي في الأساس فكرة صوفية من حيث دلالتها وأبعادها، وهذا الأمر كثير في قصائده وأشعاره، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجده يشير في بعض قصائده إلى أحد مبادئ الصوفيين، وإحدى قواعدهم الأساسية في التربية السلوكية الصوفية ، وهي: **(المجاهدة)** ، حيث نجده يقول في أحد أبيات قصيدة من قصائده متبنيا لتلك الفكرة، ومنظرا لها، وداعيا إليها :

" نفسي يا الهـــايمة عبـــــدي مولاك يزاك من الاهمال من الدهر الفاني
....
حذري روحك من ابليس اللي هـــلاك زيد الـــــدنيا والأهواء والشيطاني
وانت فيهم الـــــرابعة مـــــدى يرجاك كيف ادري نهـــار ملقـــا لعياني
هجـــري منهم واهجـــري هجرة مـــــولاك عبدي رب ابحب عشق الرحماني" [5]

والفكرة التي يتناولها الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، في هذه الأبيات من خلال الحوار الذي أداره مع (نفسه)، والذي يدعوها إلى الإخلاص في عبادة الله، والصد عن إبليس،والبعد عن اتباع الأهواء، ماهي إلا فكرة المجاهدة الصوفية القائمة على قهر النفس، ومجابهة الشيطان،والتي يعرفها الصوفيون على أنها :" الحرب مع النفس و الشيطان ".[6] ، و " بأنها صدق الافتقار الى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه،[...] ونزع القلب عن الأماني و الشبهات."[7] ، وهي المبدأ الذي أصله القشيري قائلا: " واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هداها في عموم الأوقات، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير، إنهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فإذا جمحت إلى ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى" .[8]

ومن المسائل والأفكار والمعتقدات الصوفية الأساسية التي نجدها في الفكر الصوفي والتي يمكن القول إنه قد تفرد بها، والتي نقف عليها بشكل واضح وجلي في أشعار وقصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، هي فكرة أو مبدأ: (**التوسل**)، والتوسل في المعتقد الصوفي هو:" أن يتقرب العبد الى الله تعالى بشيءٍ يكون وسيلةً لاستجابة الدعاء و قبول المطلوب،وجعل هذا الشيء الذي له قدر و مرتبة،طريق للدعاء."[9] وهي، كذلك، " طلب حصول منفعة، أو اندفاع مضرة من الله بمنزلة نبي أو ولي، أو بطلب من النبي أو الولي الدعاء للمتشفع بهم أن يقضي الله حاجته، بشرط أن يكون المتوسل مؤمناً مقبلاً على الله راغباً".[10]

هذا المبدأ الصوفي، نجده بارزا وحاضرا في العديد من القصائد الشعرية للشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، ومن بين أشعاره التي تضمنت فكرة (التوسل) بمقصدها الصوفي قوله في بعض الأبيات التي يتوسل فيها للنبي صلى اللع عليه وسلم بأن يجعله في حمايته ملتمسا منه أن يشمله بشفاعته، قوله:

" الفين صلاة على النبي سابق المجال زينـــو ماكـان ماتسبقو لعيـاني
زينو ماكان ما كـــرمو مـــولى لكمال كي نمشي في أدراك سيدي سلكني"[11]

كذلك نجد فكرة التوسل في بعض الأبيات التي يتوسّل فيها الشاعر لله سبحانه و تعالى بجاه الصالحين وبمكانتهم الرفيعة عند المولى عز وجل، بأن يحفظ عباده وأن ينجيهم من حر نار جهنّم، وأن يشملهم برحمته اللتي وسعت كلّ شيء، وأن يمكنه من حسن الخاتمة وبنطق الشهادتين، فيقول:

" اتوسل بجاههم عند المولى واصلين ربّ احفظ اعبادك من صهدات النار
رحمتك قريبة وترحمنـــــا كاملين ربّ اعطف علينا في ديك الـــدار
باقي الخـــاتمة بالشهادتين ناطقين بقـــول لا إله إلا الله في الفـم اخضر
نختم بقـــول انبينـا سيـد المرسـلين مُحَمَّد الطـــاهر سيـــدنا سيد المختار" [12]

ومن أشعار الشاعر،أيضا، التي تضمنت فكرة ومبدأ التوسل الصوفي، نجد قصيدته التي عنوانها: (الشيخ سليمان بن علي)، والتي كانت أغلب أبياتها تتضمن فكرة ومبدأ التوسل الصوفي، حيث نجد الشاعر في بعض أبياتها يتوسل بالنبي ﷺ، وبالخلفاء الراشدين وبالصحابة رضوان الله عليهم، والأولياء والصالحين فيقول :

"جيتك بالله والنبي والجيـــلالي وارجال الصّالحين ما ندهش فلان
الخلفـــاء اجميـــع والسيد علي بوبكر وعمـــر والســـيد عثمان
الست الكرام بفضلهم عند العالي الصحـــابة بجاههم عند الرحمان" [13]

وفي أبيات أخرى من القصيدة نفسها، نجده يتوسل بأولياء وصلاح منطقة " توات"، فيقول:

"ارجـال توات قاع مانهدي والي الـــرقاني و شيوخـــو بـــوازين
مول كرزاز سرختي والمغيـــلي مـــول بريش قـال سير في المان

يا سيد الحاج بومُحَمَّد قنـــــديلي يا سيد الحاج بن القاسم في الديوان
يا سيدي بوســـــاحة تعجل لي اولادك كاملين والسيـد صـــــمان
الحجرة جاءت هاجرة من الجبالي تدراء فيك خـــــايفة مـن النيران
مـــــن زارك وزارها نال الفضلي يتعمر من الســـــر يسقيه البرهان
بلكبـير قطبنا شيـــــخ ووالي لمـــــدارس العلـــوم يتلي القـرآن"[14]

وكذلك نجده في القصيدة نفسها، في بيتين من أبياتها يتوسل، ببنت النبي ﷺ، فاطمة الزهراء، وبأحفاده الحسن والحسين، فيقول :

"فاطمة الزهراء الطاهرة شفّك حـالي طلـــــبي لي نعـود في جنة رضواني
لحسن والحسين من اضنا سيد اعلي شباب الجنة اللي ذكروا في القرءان"[15]

ومن المبادئ والأفكار الصوفية ، أيضا، التي برزت في شعر الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، نجد مبدأ: **(التوبة)**، والتوبة في المعتقد الصوفي، هي من بين أهم الأسس التي يبنى عليها الفكر الصوفي، وقد عرفها الصوفيون بأنها :" الرجوع من الذنب في القول والفعل، وبعبارة أخرى هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد عن الله سبحانه إلى قربه تعالى،أو الرجوع عمّا كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه".[16] ، ومرجعيتهم في ذلك هو القرآن الكريم، حيث يستندون في ذلك لقوله تعالى : "(وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المومنون لعلّكم تفلحون)"[17]

ويتجلى لنا هذا المبدأ الصوفي في قصائد الشاعر مُحَمَّد بن قدور التالي في دعوة النفس الى الكفّ عن المعاصي، والعودة الى الطريق المستقيم قبل فوات الأوان، وتذكير النفس بما ينتظرها يوم العرض على رب العالمين جرّاء ما اقترفته من ذنوب ومعاصي . حيث يقول في قصيدة بعنوان "نفسي الهايمة عبدي مولاك" :

"يا نفســـي يا الخاينة توبي يـزاك قبل يجيك الهلاك وابكي يا عيني
يوم المحشـــر اتفكري مـادا يرجاك اش فعلتي واش قلـــتي فالفـاني
يوم المحشر صعيب مافيه التشكاك والصحيفـــة انهار نصب الميزاني
دنيت الغـــــرور تبدل بالفـــلاك وما يبقى الا الـــــرب الفوقاني
يانفسي ليك ننصحـــــك مايستناك لوكان أهل الزاد من بعـد اتواني" [18]

وكذلك من المسائل والأفكار التي ارتبطت بالصوفية وبالفكر الصوفي ، والتي مثلت عنصرا مهما في تشكيل قصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، هو: (**المديح النبوي)** . والمديح النبوي هو فن يرتبط ارتباطاً وطيداً بالتصوف، باعتبار أنه شعر ديني ذو طابع روحاني،ينطلق من المحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم ،ويقوم بذكر صفاته وفضائله ومعجزاته وتخليد سيرته ،وكذا رجاء شفاعته يوم القيامة. ويمكن القول

إنه " فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهو لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع ،لأنه لا يصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص."[19]

ومديح النبي ﷺ في شعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي،لم يكن عبارة عن فكرة صوفية تبرز في بعض أبيات قصائده، أو مبدأ من المبادئ الصوفية التي يعرض لها في أشعاره من حين إلى حين، بل كان المديح النبوي في شعره أكثر من ذلك بكثير، فهو علاوة على أنه كان يتوزع بين جل أبيات قصائده مهما كان غرضها، كان يمثل في الوقت نفسه غرضا مستقلا قائما بذاته، واتجاها أصيلا في إبداعه الشعري، فقد كان باعتباره غرضا شعريا، ينفرد بقصائد كاملة من ألفها إلى يائها،كقصيدة : " ألفين صلا عليك يا صاحب الأمات" ، مثلا، وقصيدة: " صلوا على النبي يا هاد الزيار" وقصيدة: " صلوا على النبي"، وغيرها من القصائد التي خصصت كاملة لمدح النبي ﷺ، وكان غرضها الوحيد هو المديح النبوي.

ولقد كان المديح النبوي يمثل غالبية شعر الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، وكان موزعا بين القصيدة الكاملة، وبين الأبيات الشعرية التي تعرض لمدح النبي ﷺ، والتي تتوزع بين مختلف قصائده المتعددة الأغراض. وقد جاء في مديحه للنبي ﷺ. قوله :

"ألفين أصلاة على النبي سابق المجال زينـــو ماكـــان ماتسبـــقو لعياني
زينو ماكان ماكرمو مـــــولى لكمال كي نمشي في أدراك سيدي سلكني
....
محمـــــد يا شفيعنا نمشي في ادراك يوم المحشر ابجـــــاه ربِّ وردني"[20]

ومما جاء فيه، أيضا، في موضع آخر، قوله:

"صلوأ على النبي محمـد ياســـامعين يا ذاكرين ذكـروأ ربي بالاذكـار
صلوأ عليـه مُحَمَّد بولنوار
صلوأ على النبي قد انجوم الضاويين قد اسحـــاب ماتهطل من امطار
صلوأ عليه مُحَمَّد تاج المـــــرسلـين نرجو اشفاعتـــــو واصحابو لبرار"[21]

من خلال ماسبق، وما تم عرضه من تجلي للعديد من الأفكار الصوفية، التي ما هي ، من وجهة نظرنا، إلا غيض من فيض، لأن ما ورد في شعره من عرض لتلك المفاهيم والأفكار والمعتقدات الصوفية، لايتسع المقام لعرضه وشرحه جميعه ،ولكن، يبدو لنا أن ماعرضناه هو كاف، من وجهة نظرنا، ليثبت أن شعر الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور كان منجما للمعتقدات والمبادئ والأفكار الصوفية، بحيث لا تكاد تخلو أي قصيدة من قصائده منها.

2: تجليات المصطلحات الصوفية في أشعاره

لقد كان من بين الأمور التي تمظهر فيها الفكر الصوفي في قصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي ، هو توظيفه للعديد من المصطلحات الصوفية الدقيقة والتي تقتصر، تحديدا، على الحقل الدلالي الصوفي في أشعاره ومنها مثلا؛ مصطلح: (**الـــولي**)،ومصطلح: (**القطب**) ومصطلح: (**الشيخ**)، وهي من المصطلحات اللصيقة بالفكر الصوفي، والمقتصرة على منظومته المصطلحية، إذ أن كلا من (الولي)، و(الشيخ)، و(القطب)، هم من المصطلحات ذات العلاقة بالسلوك والترقي الصوفي، وهي عبارة عن تسميات لمراتب عالية يحظى بها المترقون كلما توفرت فيهم شروطها. فمصطلح **(الولي)** هو :" مصطلح أصيل في القاموس الصوفي ويحمل مفهوماً متميزاً في هذه المنظومة المصطلحية."[22] وقد عرفه الشيخ جعفر السجاني بقوله : "الولي من تولّى الله أمره، وحفظه من العصيان ،ولم يخلّه ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال". [23] ويعرّفه عبد المنعم الحفني بقوله :" الولي من تولّى الله أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، ومن يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، .فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان." [24] ويطلق هذا المصطلح "على ذلك الصّوفي القافي، الذي ترقى بالمقامات إلى أن أصبح محفوظاً من الله سبحانه وتعالى، فيتولّى أمره ولا يكله إلى نفسه ولو للحظة،وبذلك تكون عبادته وأعماله كلها خالصة لله وحده،ولا تتخللها مخالفات شرعه".[25] والوالي هو صاحب الولاية، وهي التي تعني في قاموسهم : " قيام العبد بالحقّ عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه مقام القرب والتمكين".[26]

أما مصطلح : **(القطب)**، فهو، أيضا، مصطلح صوفي له علاقة بالتدرج الرتبي في المنظومة الصوفية، وهو اسم يطلق عند الصوفية على كل من "يدور عليه سرٌّ من الأسرار أو مقام من المقامات أو حال من الأحوال."[27]

ومصطلح **(الشيخ)** ،كذلك، هو مصطلح له علاقة بالرتبة، وهو في القاموس الصوفي يحمل مفهوما خاصا يختلف على مفهومه في القواميس الأخرى، فالشيخ في المنظومة الصوفية له مفهوم خاص، ويسمى به : " الذي سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك، فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يضره. وقيل الشيخ هو الذي يقر الدين والشريعة في قلوب المريدين والطالبين، وقيل الشيخ هو الذي يحبب عباد الله الى الله ويحبب الله إلى عباده، وهو أحب عباد الله الى الله .وقيل الشيخ هو الذي يكون قدسي الذات فاني الصفات".[28]

ويعرفه بعضهم، كذلك، بأنه :"هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ الى حد التكميل فيها ،لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدواتها". [29]

ونجد، كذلك، من بين أهم المصطلحات الصوفية، والذي يعد من المصطلحات الصوفية شديدة الخصوصية التي جاءت في قصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدود التالي واستعملها في بعض قصائده، وفق ما تعنيه وتدل عليه

في القاموس الصوفي، هو مصطلح :(**السر**)، و(السر) عند الصوفية قد يأتي مفردا : (السر)، وقد يجمع على (**الأسرار**)، وهو مصطلح مرتبط بالعلوم الكشفية اللدنية التي يحصل عليها الصوفي نتيجة ترقيه في" عملية السلوك أو السير إلى الله تبارك وتعالى، والتي تمثل في منظومتهم الجانب أو الركن التطبيقي للمعارف والمبادئ والأفكار الصوفية"[30] ، والأسرار تكون عادة ضمن العلم الصوفي الذي هو من النوع الثالث، وهو ما يسمونه: " (علم العلم) أو: (الجهل عن العلم)،وهو العلم الذي يوفر للصوفي [...] نوعا من أنواع المعرفة السرية المعقدة التي تجعله، بحسب رأيهم، يخترق أبوابا تكون على مستوى أبعاد أخرى يعجز العقل عن ادراكها."[31] وقد عرفه ابن عجيبة بقوله: "... وأما السر فهو الأمر الخفي الذي لا يدرك..."[32] وقيل أيضا في تعريفه هو: " ما تفرد به الحق عن العبد، كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه ."[33] وجاء في تعريفه، كذلك، في الرسالة القشيرية، بأنه : " لطيفة مودعة في القلب كالأرواح وأصولهم تقتضي محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف، وقالوا السر ما لك عليه إشراف.[34]

وما يتضح لنا من خلال التعريفات والمفاهيم المتعلقة بهذه المصطلحات، من خلال الرجوع إلى قواميس الصوفية ومعاجمهم،أن هذه المصطلحات هي أحد أدق وأخص المصطلحات في المنظومة المصطلحية الصوفية، وما نقف عليه، أيضا، ونحن نقرأ أشعار الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، أن هذه المصطلحات التي ذكرناها بمفاهيمها وأبعادها الصوفية، هي التي استدعاها من منظومتها، وضمنها أشعاره.

فنجده يوظف ، مثلا، كلا من مصطلح: (الــولي)،ومصطلح: (القطب) ومصطلح: (الشيخ)، في عدة أبيات من أبيات قصائده ، والتي منها قصيدته التي مدح فيها (الشيخ مولاي سليمان بن علي)،والتي عنونها، أصلا، باسمه، والتي يقول فيها :

" الشيخ سليمان بن علي قطب ووالي باقي فيك الاعمار في ابلادك جيران
جيتك بالله والنبي واهل الديوان" [35]

فما نلحظه في هذه الأبيات أن الشاعر قد استحضر هذه المصطلحات الثلاث؛ وهي: الشيخ، والقطب، والولي، بمدلولها ومفهومها وبعدها الصوفي، ووظفها في هذه الأبيات، واصفا بها إحدى الشخصيات التي يشهد لها في منطقة توات بالاستقامة والصلاح.

ونجده في موضع آخر يستعير المصطلحات نفسها، وبالمدلول والمفهوم الصوفي نفسه، وينعت بها شخصية أخرى من الشخصيات التواتية المشهود لها بالورع والصلاح ، كذلك، في منطقة توات، وهو: (الشيخ مُحَمَّد بلكبير)، فيقول :

"بلكبير قطبنـــــا شيخ ووالي لمدارس العلـــوم يتلي القـــرءان"[36]

ونقف في موضع آخر، أيضا، في القصيدة نفسها على أبيات أخرى للشاعر، يوظف فيها مصطلح (الولي)، وينسبه لبعض الأسماء المعروفة بمنطقة توات، ويعددهم واحدا واحدا ، فيقول :

"ارجال توات قاع مانهدي والي الـــرقّـاني و شيخـــو بـــوزاين
مـــول كرزاز سرختي والمغيلي مول بريش قـــــال امشي في المان
يا سيد الحـاج بوامُحَمَّد قنديلي يا سيد الحاج بن القاسم في الديوان
يا سيدي بو سماحة تعجل لي اولادك كامـــــلين و السيد صّمان"[37]

أما مصطلح (السر) ، وهو المصطلح الذي أشرنا إليه بأنه من المصطلحات الشديدة الخصوصية في المنظومة المصطلحية الصوفية فقد ورد في قصائد الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، بصيغتي الجمع والإفراد، ففي بعض الأبيات يورده مفردا، وفي أخرى يورده جمعا،وفي كل الأحوال فإن الشاعر سواء أورده مفردا أو جمعا، كان يورده مشفوعا بحمولته المعرفية الصوفية التي تؤكد على مفهومه الصوفي.

ومن المواطن التي أورد فيها الشاعر هذا المصطلح بصيغة الجمع أي: (الأسرار)، هو بيت من أبيات قصيدته التي عنونها بـــ : (صلو على النبي)، وذلك في قوله:

"يرضى على ازواج النبي ياسامعين الطاهرات أهل الذكر والاسرار"[38]

أما إيراده بصيغة المفرد أي : (السر)، فنجده في بيت من أبيات القصيدة التي عنونها بـ:(الشيخ مولاي سليمان بن علي)، والتي كتبها في مدح هذا الشيخ ،وذلك في قوله:

"من زارك وزارها نال الفضلى يتعمر من السر يسقيه البرهان"[39]

ويمكن القول إن قصائد الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي كانت تعج بالمصطلحات ذات الدلالات والأبعاد الصوفية،وما وقفنا عليه منها، هو مجرد عينة بسيطة غرضنا منها هو إبراز هذا الاقتراض والتوظيف للمصطلح الصوفي في أشعار الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، وتبيين كيف تجلى الفكر الصوفي من خلالها، وكيف كان حاضرا في تشكيلها .

الخـــاتمة

إن ما وقفنا عليه وما توصلنا إليه، ونحن ندرس ونتفحص أشعار الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، وذلك قصد الوقوف على تمظهر تيار الفكر الصوفي في الشعر الشعبي التيديكلتي، عموما، من خلال أشعاره باعتباره يمثل العينة التي خصصناها بالدراسة، هو أن هذا الشاعر كان من بين شعراء الشعر االشعبي التيديكلتي الذين تمظهر في شعرهم بشكل واضح وجلي تيار الفكر الصوفي،وكانت قصائدهم مسرحا لجملة المبادئ والأفكار الصوفية،مما جعلنا نصل إلى العديد من النتائج التي بينت لنا وبوضوح تلك الأسباب الكامنة خلف هذه المسألة، وجعلتنا نقف بشكل جلي على جملة الأسباب التي أدت إلى هذا التمظهر لتلك المبادئ والأفكار والمعتقدات الصوفية بهذا الكم والكيف في شعر هذا الشاعر، وكذا على الآثار التي تولدت عن تضمين الشاعر لتلك المبادي والمعتقدات في قصائده وأشعاره، والتي تمثل أهمها فيما يأتي:

ـ إن ثقافة الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي ذات المرجعية الصوفية، بحكم التكوين والتعليم الذي تلقاه الشاعر في الزوايا الصوفية، كان لها الأثر البالغ في تشكيل موهبته الشعرية، وكان سببا مباشرا في تجلي الأفكار والمبادئ الصوفية في أشعاره وقصائده.

ـ أن جل قصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، هي قصائد تنهل من الفكر الصوفي الاسلامي.وتتبنى فكره ومعتقده,

ـ لقد كان أكثر ما تجلى من خلاله الفكر الصوفي في قصائد الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي،هو توظيف الشاعر للمصطلح الصوفي المستقدم من المعاجم والقواميس الصوفية بمفهومه ومدلوله الصوفي .

ـ لقد كان من آثار تأثر الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي الواضح في أشعاره، هو تبني الأفكار الصوفية، ونشرها من خلال أشعاره.

ـ لقد مكنت اللغة الشعبية العامية التي كتب بها الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي أشعاره من تأمين قناة متميزة لنقل الأفكار والمبادئ الصوفية للناس العاديين (الشعبيين) وبالخصوص في منطقة تديكلت، في سياق لغوي عامي يمكن استيعابه .

ـ لقد كان لعملية التطعيم التي قام بها الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، من خلال تضمين الأفكار والمبادئ والمصطلحات الصوفيه في قصائده الشعرية، دورا بالغا في تجويد شعره من الناحية الفكرية والمعرفية والجمالية.

ـ بالرغم من توظيف الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، للعديد من المصطلحات الصوفية الشديدة الخصوصية في شعره، إلا أن ذلك لم يؤثر على جودة قصائده من الناحية الفنية، ولم يفقدها تلك العفوية، ونكهة البساطة التي تتميز بها القصيدة الشعبية.

ـ لقد أسفرت أشعار الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي، عن مستوى الشاعر المعرفي والذوقي والفكري الرفيع ، لاسيما ذلك المتعلق بتيار الفكر الصوفي.

هوامش:

1 ـ عبد القادر بوية: (2015)، تيديكات وثائق ومخطوطات، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ص23

2 ـ أنظر : بوشيخي راشيد، الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي –أشعار شعبية، دراسة، تقديم : حينوني رمضان، منشورات مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست، جامعة تامنغست، ص4

3 ـ ينظر، المرجع نفسه،ص 5،6

4 ـ ينظر، المرجع نفسه،ص7

5 ـ ينظر، المرجع نفسه، 26،27

6 ـ مُحَمَّد علي التهانوي،(1996)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج2،ط1،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،لبنان، ص1470

7 ـ عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصّوفية،ط2 ، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ص236
8 ـ أبو القاسم القشيري ،(1940)، الرسالة القشيرية، ط1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، القاهرة، جمهورية مصر العربية: ص53
9ـ جعفر السجاني،(1992)، التوسل أو الإستغاثة بالأرواح المقدسة،ط1،الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص102
10 ـ محمد بن نشأت عبد المنعم الخلوتي، النور الجلي في جواز التوسّل بالنبي والولي،طبعة خاصة، ص01
11 ـ بوشيخي راشيد، مرجع سابق، ص
12ا ـ المرجع نفسه، ص 34
13 ـ المرجع نفسه، ص 31
14 ـ المرجع نفسه، ص ن
15 ـ المرجع نفسه، ص ن
16 ـ أبو القاسم القشيري، مرجع سابق، 20
17 ـ سورة النور، الآية: 31
18 ـ بوشيخي راشيد، مرجع سابق، ص 26
19 ـ زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي،ط1،منشورات المكتبة العصرية،صيدا، لبنان، ص17
20 ـ بوشيخي راشيد، مرجع سابق، ص 26
21 ـ المرجع نفسه، ص 33
22 ـ بكادي محمد،" أثر توظيف المصطلح الصوفي في الرواية الجزائرية المعاصرة في الرواية الجزائرية المعاصرة ـرواية (الولي الطّاهر يعود الى مقامه الزكي) للطّاهر وطارـ أنموذجاـ ،-مجلة الآداب و اللغات،المجلد 4، العدد 3، ديسمبر 2018، -ص 309
23 ـ عبد الرزاق الكاشاني،(1992)،اصطلاحات الصوفية،تحقيق: عبد العال شاهين،ط1،-دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ص79
24 ـ عبد المنعم الحفني،مرجع سابق، ص269
25 ـ بكادي محمد، " أثر توظيف المصطلح الصوفي في الرواية الجـــزائرية المعاصرة في الرواية الجزائرية المعاصرة " ، مرجع سابق ،ص 309
26 ـ عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سابق، ص79
27 ـ سعاد الحكيم،(1981)، المعجم الصوفي، ط1،دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص910
28 ـ عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ص143
29 ـ عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سابق، ص172
30 ـ بكادي محمد :(2022)، الخطاب القصصي القرآني، وتوظيفه في تعلمية السلوك التربوي الصوفي ـ سورة الكهف أنموذجاـ ،الخطاب والدلالة دراسات تطبيقية على الخطاب القصصي القرآني ، تحرير : محمد قدوم ،مجلد 2 ، اسطمبول، تركيا، ص 44

31 ـ بكادي مُحَمَّد، (2011)، أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت، لبنان،ص128، 129

32 ـ عبد الله بن عجيبة، معراج التشوق الى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي،مركز التراث الثقافي المغربي،الدار البيضاء، المغرب، ص74

33 ـ الجرجاني علي مُحَمَّد بن علي-التعريفات-تحقيق ابراهيم الأبياري –دار الريان للتراث،بيروت –ص156

34 ـ أبو القاسم القشيري، مرجع سابق، ص 27

35 ـ بوشيخي راشيد، مرجع سابق،ص 31

36 ـ المرجع نفسه، ص 31

37 ـ المرجع نفسه، ص ن

38 ـ المرجع نفسه، ص 33

39 ـ المرجع نفسه، ص 31

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع

1ـ الكتب

1. أبو القاسم القشيري ،(1940)، الرسالة القشيرية، ط1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
2. بكادي مُحَمَّد، (2011)، أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت، لبنان.
3. بكادي مُحَمَّد :(2022)، الخطاب القصصي القرآني، وتوظيفه في تعليمية السلوك التربوي الصوفي ـ سورة الكهف أنموذجا، ،الخطاب والدلالة دراسات تطبيقية على الخطاب القصصي القرآني ، تحرير : مُحَمَّد قدوم ،مجلد 2 ، اسطمبول، تركيا.
4. بوشيخي راشيد، الشاعر الحاج مُحَمَّد بن قدور التالي –أشعار شعبية، دراسة، تقديم : حينوني رمضان، منشورات مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست، جامعة تامنغست.
5. زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي،ط1،منشورات المكتبة العصرية،صيدا، لبنان.
6. سعاد الحكيم،(1981)، المعجم الصوفي، ط1،دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
7. جعفر السجاني،(1992)، التوسل أو الإستغاثة بالأرواح المقدسة،ط1،الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
8. الجرجاني علي مُحَمَّد بن علي،التعريفات،تحقيق ابراهيم الأبياري،دار الريان للتراث،بيروت، لبنان
9. عبد الرزاق الكاشاني،(1992)،اصطلاحات الصوفية،تحقيق: عبد العال شاهين،ط1،-دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

10. عبد القادر بوية: (2015)، تيديكات وثائق ومخطوطات، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
11. عبد الله بن عجيبة، معراج التشوق الى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي،مركز التراث الثقافي المغربي،الدار البيضاء، المغرب.
12. عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصّوفية،ط2 ، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
13. محمد بن نشأت عبد المنعم الخلوتي، النور الجلي في جواز التوسّل بالنبي والولي،طبعة خاصة.
14. محمد علي التهانوي،(1996)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج2،ط1،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،لبنان.

الدوريات

1- بكادي محمد،" أثر توظيف المصطلح الصوفي في الرواية الجزائرية المعاصرة في الرواية الجزائرية المعاصرة ـرواية (الولي الطّاهر يعود الى مقامه الزكي) للطّاهر وطارـ أنموذجاـ ،-مجلة الآداب و اللغات،المجلد 4، العدد 3، ديسمبر 2018، 298 320